اِقتصادُ رمَضَان

الدكـتور سامر مظهر قنطقجي

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [البقرة: 183]

اعتاد بعض المسلمين أن يباركوا لبعضهم البعض بمناسبة قدوم شهر رمضان، لكني رأيت أن الكتابة عن اقتصاد رمضان سيكون أكثر نفعاً خاصة للمهتمين بالاقتصاد. فشهر رمضان هو حدثٌ ديني له طبائع اجتماعية ذات أحداث اقتصادية.

نقول اقتصاد رمضان وليس الاقتصاد في رمضان، لأن الأول مخصوص سببه الشهر ذاته، أما الثاني فموجود عبر الأشهر كلها دون خصوصية محددة، وللتعرف على اقتصاد رمضان لابد من تتبع أحداثه اليومية.

إن الامتناع عن الأكل والشرب وما شابه طيلة اليوم، ثم إمكانية ذلك بين المغرب والفجر، مؤداه أن يُخفّض المسلمون استهلاك طعامهم وشرابهم بترك ما اعتادوا عليه في غير شهر رمضان. ويقدر مدير مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي أن الصيام يدعم الاقتصاد المصري بأكثر من 30 مليار جنيه إذا تم تنفيذه طبقا للأصول الشرعية. فالأصول الشرعية تدعو المسلمين للاعتدال في طعامهم وشرابهم وجميع سلوكياتهم الحياتية، فالإسراف سلوكٌ منهي عنه وهو مذموم لأن فيه إضاعة المال لزيادة الاستهلاك عن الحد الطبيعي. وكذلك التبذير مذموم ومنهي عنه لما فيه من إضاعة للمال في غير موقعه.

يتميز الشهر بكرم المسلمين حيث يُسن دعوة الآخرين للإفطار من الأقارب والأصحاب والجيران سواءً منهم الأغنياء والفقراء، مما يزكو بأفراد المجتمع ليكونوا متكافلين فيرتقي بهم نحو الأفضل. وبذلك يميل الفقراء نحو خفض مصروفاتهم الخاصة بالطعام والشراب ويوجهون ما ادخروه لإشباع حاجات أخرى أو قد يحتفظون به. كما يكثر في هذا الشهر تبادل الهدايا وتقديم الضيافة من الأطعمة وغيرها فتزداد إيرادات ذوي الحاجة مما يُساعدهم في إعادة جدولة ميزانياتهم بما يرونه الأفضل لحياتهم ومستقبلهم. يضاف إلى ذلك ما يدفعه المكلفون بالصيام الذين لا يستطيعون الصيام لعذر شرعي من نقود إلى الفقراء.

ويتوجه بعض الأغنياء لإقامة مآدب إفطار لأعضاء الجمعيات الخيرية الذين يغلب عليهم الفقر فيُساعدون تلك الجمعيات بهذه المبادرات مما يزيد قدراتها ومواردها.

لكن قد ترتفع أسعار بعض السلع في شهر رمضان بسبب زيادة الطلب على كمياتها، ويلجأ بعض التجار إلى سياسة تخزين سلع يحتاجها الناس في رمضان لتوفيرها عند ازدياد الطلب للمحافظة على استقرار أسعارها مما يوفر ربحاً لهم وسوقاً لأعمال التخزين، وقد يزداد الطلب لأسباب غير متوقعة، أما ازدياد الأسعار بسبب احتكار البعض فغير مستحسن ومنهيٌ عنه.

ويبدو أن واقع الثورات العربية قد فاقم الأوضاع الاقتصادية قبيل شهر رمضان كما ذكر برنامج الغذاء العالمي التابع للأمم المتحدة حيث تسببت اضطرابات اليمن بتعطيل إمدادات الغذاء والوقود والمياه والاحتياجات الرئيسية الأخرى مما رفع أسعارها.

أما في السعودية فيزداد طلب العائلات على الخادمات قبيل شهر رمضان المبارك!!

ويعتبر توفير الحكومات للسلع الموسمية بكميات متوقع لها أن تحقق توازن العرض والطلب للمحافظة على استقرار أسعارها، وتأمين حاجات المستهلكين منها، أمر ضروري لحماية قدرات المستهلكين الشرائية. وتقوم الدول ذات الطقس الحار بخفض ساعات دوام العاملين فيها، فعُمان مثلاً اتجهت إلى خفض ساعات العمل خلال الشهر المبارك في شركات القطاع الخاص بالنسبة للمسلمين إلى 6 ساعات في اليوم بما يعادل 36 ساعة في الأسبوع. إن هكذا سياسة قد تؤدي إلى إضعاف إنتاجية اقتصاد تلك البلاد.

ويشهد شهر رمضان رواجاً في أداء العمرة، مما يؤدي إلى زيادة الطلب على الريال السعودي بأكثر من 25٪ وسطياً مما يرفع سعر صرفه. بينما يتوقع صيارفة قطريون أن يتضاعف الطلب على الريال السعودي بنسبة تصل إلى 100٪ في شهر رمضان المقبل بسبب موسم العمرة.

ويقوم كثير من المسلمين بضبط رأس الحول لزكوات أموالهم ليكون خلال شهر رمضان بهدف كسب بركة الشهر فيُخرجون زكاة مالهم ويسددونها إلى المحتاجين الذين حددتهم الآية 60 من سورة التوبة: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

يُخرج كل مكلف من المسلمين صدقة الفطر حتى نهاية شهر رمضان بدفعها إلى الفقراء فيزيد من سيولتهم، وبما أن الميل الحدي للانفاق لهذه الفئة يساوي الواحد، فإنهم يتوجهون لصرف كل ما لديهم مما يَزيد سيولة السوق ويُحسِّن أداؤه.

إن ما سبق إنما هو تربية سلوكية لأفراد المجتمع الإسلامي حيث أن شريعة الإسلام توجب على أفرادها سلوكيات محددة. تلك السلوكيات لها آثار عديدة، وما يهمنا في بحثنا هو السلوك الاقتصادي الرشيد الذي يتربى عليه المسلمون لأنهم مسلمين، فالعبادة ممزوجة بحياتهم لا تفارقها. لذلك إن

الاقتصاد الجزئي المرتبط بسلوك الأفراد يخضع لنواميس شريعة الإسلام تنظيماً وترشيداً بعقلانية اجتماعية فريدة، بينما عجزت دول كبرى تتبنى نظماً وضعية ومنها الولايات المتحدة عن تحفيز الإنفاق الخاص لمواطنيها بغية تحريك عجلة الاقتصاد الكلي بعدما ألمّ به أزمةً ماليةً حادةً كادت أن تذهب بإمبراطوريتها ومازال الخطر قائماً. فالحلول التي يتنافس عليها الكونغرس والبيت الأبيض في هذه الأيام تعتمد على رفع سقف الديون من عدمه. وهذه السياسة لها هناتها القاتلة لأنها تؤدي إلى خفض سعر صرف الدولار وتزيد معدلات التضخم الذي يلتهم نسب النمو التي تحققها أي سياسة اقتصادية متبناة. إن تحفيز الإنفاق الخاص هو سياسة مالية ذات أثر اقتصادي فعال لأنها تعمل على تنشيط السوق بشكل صحي وفعال.

إن جميع الأحداث السابقة تتم في فترة محددة خلال الشهر الكريم نفسه، وللكلام عن التوقيت خاصة ما ذكرته في مقالي السابق (كيف أبدأ تعلم الاقتصاد الإسلامي؟) بأن اعتماد التقويم الهجري يجعل من المناسبات والأعياد مواسم متحركة وليست ثابتة نسبة للتقويم الشمسي (وكلاهما خير من الله) وذلك يُباعد برأينا بين الدورات الاقتصادية ويُقلل من حدتها، وهذا يُقدم تفسيراً لانعدام الأزمات الاقتصادية في التاريخ الإسلامي وإن حصل منها شيء فشدته ضعيفة قابلة للسيطرة.

يتميز التقويم الشمسي بأنه ثابت لا يتغير وتتكرر الأحداث الاقتصادية التي تقع ضمنه بنفس التواريخ دوماً، ففي الصيف موسم الحصاد، وفيه موسم العطل المدرسية، وفيه يعود المغتربون، لنجد فيه ازدحاماً ورواجاً في الأسواق، وهذا ما يتكرر سنوياً، بينما يميل فصل الشتاء لأحداث تخصه أيضاً. وتلعب المواسم دورها في تحسين حالة الاقتصاد لتجعله في حركة نشيطة مؤداها رواجه أو خروجه من كساد قد يصيبه.

أما التقويم الهجري فإن أحداثه تتغير بتغيره، فهو تقويم مرتبط بحركة القمر، والفارق بين التقويمين الشمسي والهجري هو 11.25 يوم لذلك فكل 33 سنة هناك دورة كاملة بين التقويمين. وعليه فإن شهر رمضان ومواسم العمرة وعيد الفطر وعيد الأضحى وموسم الحج كلها مواسم ترتبط بهذا التقويم الهجري وهي لا تثبت صيفاً أو شتاء بل هي تتبدل على جميع أوقات التقويم الميلادي. وعليه فإن رمضان يعود كل سنة بفارق 11.25 يوم فتتنقل المواسم على مدار العام، وبذلك يتحرك الإنفاق وما يرافقه من وفرة السيولة دون توقف من وقت إلى آخر فيكون عدل الإسلام متحققاً دون نقص حتى على مستوى الإنفاق العام.

إن العالم المتحضر يبحث عن سبل تحفيز الانفاق الخاص وخاصة العائلي منه، بينما نجد أن بنية المجتمع الإسلامي المبني على القواعد والأصول الشرعية يحقق ذلك تلقائياً. فدول أوروبا تبحث عن آليات لوقف تنشيط الاقتصاد من خلال الإنفاق الحكومي المعتمد على الديون بأمل أن يؤدي ذلك إلى تحفيز الإنفاق الخاص خاصة العائلي، ويعيش "المركزي الأمريكي" نفس الأمل كما جاء على لسان برنانكي، رئيس البنك المركزي الأمريكي، متوقعاً تحقيق نمو معتمد على الإنفاق الخاص.

إنه شهر القرآن ونحن نرجو اللّه أن يُعيننا على تلاوة آياته وسوره وحفظها ونسأله تعالى أن يُفهمنا تدبره وأن يفتح قلوبنا لفهمه، وقد صدق اللّه العظيم بقوله: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [محمد : 24].

أخيراً نذكر بأن المسلمين يفتخرون بأن معظم غزوات الرسول صلى اللّه عليه وسلم والفتوحات كانت في شهر رمضان المبارك، وهذا إشارة إلى زيادة إنتاجية هذه الأمة في هذا الشهر لا العكس بشرط أن تلتزم شريعة الإسلام لكمالها وشمولها.

وما يجدر ذكره أننا نسلط الضوء على اقتصاد رمضان فقط دون غيره من السياسات المالية والنقدية والاقتصادية في الاقتصاد الإسلامي وهذا ما سوف نعمل عليه إن شاء اللّه مستقبلاً كما نفعل باستمرار، ونسأل زملاءنا أن يسبقونا إليه ما استطاعوا لذلك سبيلا.

حماة (حماها اللّه) بتاريخ 30 شعبان 1432 الموافق 2011/07/31 الساعة التاسعة صباحاً

كتبته ووزعته والأزمة في أشدها لأقول لكم أن ما نهدف إليه أكبر من بلد محدد

إنه رضاء اللّه تعالى

اللهم نسألك العفو والعافية.. نسألك سلامة اليقين.. نسألك حفظ العباد والبلاد جميعها

لا تنسونا من الدعاء أيها الأخوة

سامر مظهر قنطقجي

www.kantakji.com